شوقي ضيف ورحلة التكامل المنهجي في الجامعة المصرية

أ.د. عفت الشرقاوي(•)

١- التكامل المنهجي بين العام والخاص:

في أخبار الرحلة العلمية الممتدة للدكتور شوقي ضيف طالبًا، وأستاذًا، ومؤلفًا - ما يدلُّ على استعدادٍ فطري وموهبة أخلاقية وعقليّة، خاصّةً في القدرة على الجِدّ والمثابرة والدقة والضبط والنظام، والرؤية المعتدلة المتوازنة لكلِّ ما يصدر عنه من أحكام، وما يناقش من قضايا. فالتعادلُ الأكاديمي بين العام والخاص والقديم والجديد والوطنية والعالمية ـ هو منهجه المتميّز الذي يجعله مثلاً أعلى لكلِّ طلاب المعرفة في الوطن العربي الكبير.

من ذلك ما يلحظه القارئ - ابتداءً - فيما كتبه الأستاذ على سبيل السيرة الذاتيّة من قصص ذكرياته الخاصة في القرية والمدينة طالبًا وأستاذًا، قارئًا وكاتبًا، وذلك في كتابه "معي" الذي نشرته دارُ المعارف في جزءين في سلسلة (اقرأ)، مما يؤكّد هذا الحرصَ على التكامل الأكاديمي الذي أشرنا إليه في قراءة التاريخ، والذي نتوقف عنده في هذه المقدمة لبيان هذا المعني الخاص في منهج الأستاذ العظيم.

فعلى الرغم من أنَّ عنوانَ الكتاب قد يُوحي بدلالة هي أقرب إلى الخصوصية الذاتية والفردية المطلقة في اختياره لكلمة "معي" كأنّه حديثُ الأنا إلى الأنا - فإنَّ الكتابَ في الواقع لا ينفردُ بالحديث عن الذات في علاقاتها القريبة بما حولها من الأشياء - شأن كثيرٍ من التراجم الذاتية المعروفة - وإنما يتناولُ تجربةَ المؤلّف الشخصية خلال أحداث كثيرة، في إطارٍ عام من تجربة المجتمع الكبير من حوله في مسيرته التاريخية. وبذلك تَكْشِفُ القراءةُ المتأنيةُ لهذه السيرةِ الذاتية عن مَيْلٍ منهجيٍ واضحٍ لشوقي ضيف في أنْ يعرضَ أخبارَ حياته الشخصيّة، ومسيرته العلمية والاجتماعية في إطارِ مسيرةٍ

(•) أستاذ الدراسات الإسلامية بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس.

أكبر لحياةِ الوطن الذي يفتخر شوقي ضيف بالانتماء إليه والدفاع عن مقدّساته، كما هو واضح في تفصيلات هذه السيرة التي تنبض كل سطورها بهذا الشعور القومي الرفيع. وهو شعورٌ لا يكتفي بالإعلان عن نفسه من خلال شعارات الحُبِّ والولاء - كما هو الشأن في أعمال كثير من المؤلفين - وإنما يتمُّ الكشفُ عن ذلك الولاء في حياة شوقي ضيف بإعلاء قيمة العمل الدائب المستمر من أجل البناء الثقافي الجديد لهذا الوطن، فهذا هو موقعه الاستراتيجي في حركة التقدم بحكم تخصصه المهني. وهو جهد كان الوطن في أمسِّ الحاجة إليه في بداية نهضته الجديدة وخروجه من أزمة الاحتلال الفرنسي إلى أزمة الاحتلال البريطاني، بعد عهود طويلة من سيطرة المماليك والأتراك.

يتحدث شوقي ضيف عن نشأته في قرية بجوار دمياط في رومانسية حالمة، وشاعرية عذبة. وعلى الرغم من أنه نَشَأَ في أسرةٍ ميسورةِ الحال إلى حد ما استطاعت أن تعينه على مواصلة رحلته العلمية ـ فقد بدا في عباراته ما يدل بوضوح على تعاطف شديد مع فلاحي قريته الذين كانوا يعيشون حياة فقيرة مجدبة، فهو يقول: "وتنم دور الفلاحين العاملين المتواضعة عما بداخلها من ضنك وإعسار"[١]، فهو يرثي لحال الفلاح، ويحس بآلامه التي يتقبلها هذا المواطن الصابر راضيًا؛ ولذلك فكلُّ ساقية في الوادي الأخضر الزمردي تبكي في وجدان شوقي ضيف، "كأنها تذرف الدمع على عاشق دفين وما تني القواديس تحمل دموعها التي لا تنفد ولا تفنى أبدا"[٢]. وهو يصف نساء قريته بأنهن "لا يعرفن البرقع ولا الحجاب، فهنّ مثل أخواتهن في ريف مصر دائما سافرات، فحجابهن وبرقعهن الحياء المترقرق في أسارير وجوههن... وكما أنَّ للرجال والشباب من أهليهم الجلبابَ الأزرق لا يخلعونه، كذلك لهن الثوب الأسود، سواد الطين الذي يعملن فيه، لا يزايل أجسادهن فهو كل ما يملكنه وكل حليهن وزينتهن، لا يعرفن شيئا وراءه"[٣].

---

(١) شوقي ضيف: معي. القاهرة : دار المعارف، ١٩٨٥. ج١/ ٩.

(٢) نفسه، ص ٢٣.

(٣) نفسه، ص ١١.

فلمّا التحق شوقي ضيف بالمعهد الديني بدمياط بعد أن حفظ القرآن الكريم، تصادف أن كان "هذا في العام المكمل لأعوام الثورة التي أشعلتها مصر ضد الإنجليز الغاشمين منذ سنة ١٩١٨... وكان سعد قد أخذ يلهب حماسة الأمة بخطبه النارية في شهري أكتوبر ونوفمبر مطلع أول عام للصبي في هذا المعهد الديني... وخاصة في يوم عيد الجهاد، يوم ١٣ نوفمبر ١٩٢١"[١].

ويمضي شوقي ضيف وكأنه يكتب سيرته الذاتية الخاصة فعلاً كما وعد في عنوان كتابه، وهو في الحقيقة إنما كان على ذكر دائم بمصر وثورتها في سبيل الاستقلال، وحرصها على استقرار الحياة الديمقراطية فيها، فهذا هو الهمّ الكبير الذي يؤرقه خلال صفحات كتابه كلّه، بل هو يشير إلى بعض الأحداث العالمية الكبرى، ولاسيما تلك الأحداث التي ارتبطت مجرياتها بصورة أو بأخرى بتطور الحياة السياسية في مصر. وعلى رأس ذلك تأتي مسألة نشأة الاتجاه العلماني في تركيا، وهو الاتجاه الذي شرع مصطفى كمال أتاتورك في الدعوة له ووضع قواعده الأساسية من أجل تحويل تركيا إلى دولة حديثة "وذلك بأن يصبغ الدولة بصبغة مدنية خالصة، فكثر الحديث (في الصحف المصرية) عن الخلافة وعواقب إلغائها"[٢].

وهكذا يواصل شوقي ضيف ترجمته الذاتية لسيرة حياته، في إطار عام من التأريخ لما يجري من الحوادث في مصر، وما حولها من دول العالم، فليس هناك إشارة مهمة تمسّ حدثًا من أحداث شخصية بطل السيرة هنا دون أن يضعها المؤلِّف في مناخها الثقافي والسياسي العام، وذلك كله يتم من غير أنْ يتكلّفَ المؤلِّف لذلك أدنى التكلف في سبيل الربط بين الخاص الذي هو في حقيقته ذاتيٌّ فَرْديٌّ يصف تقلبات الحياة لطالب نابه يشق طريقه بين دروب الحياة في القرية والمدينة، وبين العام الذي يرتبط بنظام الحكم في مصر، وصراع الأحزاب، وتدخل السلطة الإنجليزية في كثير من شئون الحياة المصرية. غير أن كثيرًا من المؤلِّفين يقعون في هذا التكلف، فتفتقر ترجمتهم الذاتية إلى حبكة الصناعة الفنية بسبب تعلقها المتعسف بالربط بين الخاص والعام في تفسير المواقف المختلفة بحيث

---

(١) معي، ج١/ ٤٥.

(٢) نفسه، ص ٦٠.

تبدو سيرة البطل كأنها ضرب من المذكرات السياسية، وهو مالا تجد له أثرًا في كتاب "معي" لشوقي ضيف.

ذلك أنَّ شوقي يكتفي بأن يجعل من الحدث السياسي خلفية اجتماعية للموقف الثقافي أو الاجتماعي الخاص الذي يعرض له، وكأنه الموسيقى التصويرية الخلفية التي يعدّها المخرجون لأعمالهم الدرامية. وهو يترك لقارئه حرية التأمل لاستنباط هذه العلاقة بنفسه، واكتشاف تأثير هذا الأمر العام الذي تتوالى أحداثه على عقل الطالب الناشئ خلال مراحل حياته الدراسية، وكثيرًا ما يستطيع القارئ من خلال بعض التعليقات العابرة التي يقدمها المؤلف على الأحداث أن يتكشف رأيه في تطور الحياة الاجتماعية في مصر، ومن ذلك انتماؤه الفكري والسياسي، أو على الأقل تعاطفه الحزبي الخاص، وموقفه من كبار زعماء الأمة ومثقفيها، ورأيه في كثير من علمائها ورجال الحكم فيها، فهو يقدم سيرته في إطارها الزماني والمكاني العام في خطوط يتوازى فيها النفسي والاجتماعي والقومي.

وهناك إشاراتٌ أخرى متكرّرة إلى نشأة حزب الوفد وتطوره، ودوره في الحياة السياسية في مصر، ثم ظهور مصطفى النحاس زعيمًا له بعد سعد زغلول، وإشارات غيرها إلى ثورة طلاب الجامعة ضد صدقي وحكومته الباغية، ثم قضية العرب مع اليهود بفلسطين، وقرار التقسيم إلى دولتين، وحرب فلسطين التي انتهت بإنشاء دولة إسرائيل، وقيام الثورة سنة ١٩٥٢، وتأميم قناة السويس سنة ١٩٥٦، والانفتاح السياسي على المعسكر الشرقي الذي زار شوقي ضيف بعض عواصمه في هذه المناسبة، ثم ما حدث بعد ذلك من حروب مع إسرائيل كان منها حرب يونية ١٩٦٧ "التي ظلت مصر بعدها ست سنوات طوالاً تتجرّعُ مرارةَ النكسة، حتى كان النصر المؤزر لمصر في أكتوبر سنة ١٩٧٣، فكان ذلك مجدًا لجيشها الباسل استعادت به كرامتها الحربية وكرامة الأمة العربية"[1].

---

(١) معي، ج٢/١٢٩.

ودون أن نمضي في تفصيل هذه العناية بالربط بين الخاص والعام في سيرته الذاتية فإنه يجوز لنا أن نتساءل في النهاية: هل كان شوقي ضيف يؤرخ حقا لمصر من خلال الكتابة عن حياته، أم كان يؤرخ لحياته من خلال الكتابة عن مصر؟ وهو سؤال منهجي في صميم القضية التي يتعرض لها هذا الكتاب.. سؤالٌ ربما تحتاج الإجابةُ عنه إلى تفصيلٍ أوسع، ولكنَّ المهمَّ هنا أَنْ نلحظَ أنَّ هذا المزج واضحٌ في ذهن القارىء والكاتب معًا، وأنَّ الخاطرَ الوطني العام يُلِحُّ على شوقي ضيف في كل خطوة من مراحل حياته، ولا يكاد يبارحه في كل صفحة من صفحات كتابه. وهو منهج في كتابة التراجم الذاتية ليس واضح المعالم في الأدب العربي فيما رأيت، وخصوصًا فيما سبق في أعمال أدبية مشهورة تنتمي إلى هذا اللون الأدبي، كان من المتوقع أن يتأثر بها شوقي ضيف فنيًا، وأن يهتدي بمنهجها فيما يكتب عن نفسه، ولاسيما كتاب "الأيام" لطه حسين الذي لاقى قبولاً عظيمًا، حيث تسيطر الأخبار عن شخصية البطل الخاصة على المحيط التاريخي والاجتماعي العام من حولها، فرؤية الذات تغلب على رؤية الوطن الأكبر في كتاب طه حسين؛ فهو يتعاطف مع شخصيته الذاتية، مشغولاً بها صبيًا وفتى "تعاطفًا يبلغ حدَّ الزهو والتعالي والشموخ لسخطه على تلك البيئة وتحيزه ضدها"[1]، وهو في هذه السيرة يفضل الإفضاء بما آذى نفسه وآلمها من ذكريات في تلك البيئة المتزمتة، على عكس ما صار إليه الأمر عند شوقي ضيف الذي يبدو سعيدًا ببيئته القريبة والبعيدة على السواء متعاطفا مع آلامها، مسجّلاً لأحداثها خلال ترجمته الذاتية في توسع مقبول، وهذا كله يرتبط بالموقف النفسي المختلف لطبيعة البطلين بصفة عامة. وكذلك الأمر في كتاب "حياتي" لأحمد أمين الذي لا يتخلص كثيرًا من هذه الذاتية إلا في حدود الحديث عن معالم بيئته القريبة، كما هو الأمر عند طه حسين فهو يسهب في تصوير مراحل الطفولة والصبا والشباب، ويتتبع المؤثرات الهامة التي أسهمت في تكوينه الخلقي والروحي والفكري، ويفصل القول في الكلام على الشخصيات التي تركت طابعها في شخصيته الفكرية، "وقد أسهب - أيضًا - في وصف الدور الذي

---

(١) يحيي إبراهيم عبد الدايم : الترجمة الذاتية. بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٤. ص ٤١٥.

اضطلع به في الحياة الثقافية بعد أن اكتمل تكوينه الثقافي"[١]، إسهامًا يكاد يشغله عن الإشارة إلى الإطار الاجتماعي العام للحركة الوطنية، كما نجد في كتاب "معي" لشوقي ضيف. ولا تعني هذه المقارنة بحال من الأحوال مفاضلة نقدية بين الأعمال الثلاثة، وإنما نناقش القضية هنا في حدود علاقات العموم والخصوص في فن التراجم الذاتية التي شغل بها هؤلاء المؤلفون، وهذه مسألة تختلف عن الحكم الفني على هذه الأعمال.

أما نجيب محفوظ الذي تبدو بعض أعماله الدرامية تأريخا لمصر، على حين أنها في الوقت نفسه تعبير ذاتي عن بعض مراحل حياته الشخصية كما يرجح بعض النقاد ـ فإن شخصية المؤلف فيها تتخفى وراء أبطال رواياته العديدين، فهي غير صريحة في الترجمة الذاتية عن حياة المؤلف كما نرى في الأعمال السابقة؛ ولذلك فإنها جنس أدبي يختلف عما نعرض له هنا من السيرة الذاتية التي كتبها شوقي ضيف. وهذا يقيم فنيا في حدود تطور التأليف في أدب الرواية في مصر، وإلا فإن كل رواية لا تخلو من أن تكون رؤية ذاتية للمجتمع والحياة، وبالتالي سيرة شخصية من جنس أدبي خاص. ومع ذلك فإن الخلفية التاريخية لسيرة شوقي ضيف في كتابه "معي" أقرب في رؤيتها العامة إلى روايات نجيب محفوظ منها إلى كتابي: طه حسين وأحمد أمين، من حيث مساحة العرض السياسي للمواقف والملابسات التاريخية، وهذا من دون أن تهبط في ذلك إلى مستوى المقال السياسي المباشر، كما كان الأمر عند أحمد لطفي السيد في كتابه "قصة حياتي"، أو عبد العزيز فهمي في كتابه "هذه حياتي".

والآن ماذا يعني أن مؤلفًا كبيرًا هو موضع تقدير علماء عصره، يعيش قمّةَ مجده العلمي، وعطائه الأكاديمي، ثم يكاد لا يرى نفسه فيما كتب في هذه السيرة إلا في إطار من صوت الوطن، وحركة التاريخ من حوله، حيث يسجل انفعالاته الخاصة إزاء ما يجري من أحداث خلال ترجمته لذاته باعتبارها مرتبطة من قريب أو بعيد بأحداث حياته الشخصية، ووقائع حركته الواقعية في الحياة؟

---

(١) الترجمة الذاتية، ص ٢٦٠.

وهنا لا يكفي أن نقول: إنَّ هذه الظاهرة مجرد تعبير عن درجة عالية من الحس الوطني الرفيع، مع أنها كذلك فعلاً، أو أن نقول: إنها مذهب فني متميز في كتابة السيرة الذاتية، وإنْ كانت كذلك أيضًا، ولكننا نقول بالإضافة إلى ذلك كله: إنها تعبير عن تواضع كبير لعالم عظيم، لا يعد نفسه موضوعًا جديرًا بالاعتبار والتأمل الأخلاقي، والحكاية التاريخية، والمثل الأعلى الذي ينبغي أنْ يحتذيه الشباب، إلا في حدود أنه مجرد فرد في أمة، مع أنه في الحقيقة كان أمة في فرد، كما يقال فيه دائما . ولكن هذا الفرد العظيم كان يشعر في كل حال أنه لا معنى لحياته من دون أن تكون هذه الحياة قطرة ندى عبقة في خضم هذا المحيط العظيم من الحياة والأحياء الذي نسميه الوطن، أو شجرة واحدة وارفة في غرس هذا الوادي المبارك الذي ننعم بالحياة حوله، فهو يعتز بتاريخه القديم كما يشارك في بناء تاريخه الحديث في حدود خبرته المهنية المحدّدة، بكل ما يملك من الصبر والإيمان بالمستقبل. وشوقي ضيف بذلك في حقيقة الأمر مثالٌ يُحْتذى، نحتاج إلى أن نقدمه إلى أبناء هذا الوطن من أجل البناء الجديد في كل مكان.

هذا التكامل المنهجي في هذه السيرة هو رؤية شوقية تعتمد في قراءة التاريخ على ملاحظة العلاقة بين الخاص والعام، وهذا ما نجده في كتابه "معي"، كما نجده في كتبه الأخرى.

ولننتقل الآن إلى ضرب آخر من هذا التكامل الذي ظل صفة ملازمة للأستاذ الكبير في جميع أعماله.

٢- التكامل المنهجي بين القديم والجديد:

تتجلى هذه النزعة التكاملية في منهج شوقي ضيف مرة ثانية عند النظر في أعماله الأخرى التي عرضت فيما عرضت له لقضايا كانت موضع جدل وسجال طويلين بين المؤلفين خلال حياته بالجامعة طالبا وأستاذًا ومؤلّفًا .

ونبدأ بالإشارة إلى التطور الذي مرّت به الحركة التعليمية في مصر بما في ذلك الجامعة خلال القرن الماضي وكانت مصر قد عرفت مرحلة جديدة منذ عهد محمد علي مؤسِّس مصر الحديثة، فقد بدأ بذلك عهد الانفتاح على الثقافة الغربية عن طريق بعثاته إلى أوربا . ورويدًا رويدًا ازداد

الاهتمام بالتعليم المدني. وكان من ذلك تكون عديد من اللجان الأهلية والجمعيات الخاصة لتشجيع إنشاء المدارس منذ عهد الخديوي إسماعيل، وازداد بذلك عدد المتعلمين الذين كانوا يرون أن التعليم هو الوسيلة التي تعينهم على استكشاف آفاق جديدة من المعرفة للإفادة من كنوز البيئة الجغرافية التي وهبها الله لمصر والمصريين.

وهكذا أدرك المصريون ضرورةَ الاعتماد على العلم خصوصًا بعد اهتمام رفاعة الطهطاوي بذلك، وذهاب المجدّدين في الإسلام إلى أنَّ العلم قوة وأنه لا يناقض الدين، ولو أدى ذلك إلى التأويل في تفسير القرآن الكريم، كما ذهب إلى ذلك جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا، ومجموعة من كتّاب المنار بتطلعهم الإصلاحي في التفسير الاجتماعي لنصوص الإسلام.

لقد آمن هؤلاء العلماء أن ربط العلم بالدين كفيل بألا تحمل العلوم الغربية الحديثة معها اتجاهات أخلاقية تتعارض والدين الإسلامي، واعتقدوا أنها يمكن أن تعين على قيام الحضارة ونموها، ومن ثم رأوا ضرورة اقتباسها والأخذ عنها دون تردد[1].

وفي ظل هذا الوعي المتزايد بأهمية التعليم تعاونت جهود خاصة على إنشاء الجامعة المصرية التي يواكب افتتاحها سنة ١٩٠٧ مولد أستاذنا الكبير الدكتور أحمد شوقي ضيف سنة ١٩١٠، كأنه وهذه الجامعة الناشئة كانا على موعدٍ مع القدر، ليصبح له ضمن النخبة المتعلمة دورُ الريادة الفكرية المتوازنة، بعد أن أتمَّ رحلتَه العلمية بها بحصوله على درجة الدكتوراه سنة ١٩٤٢ بمرتبة الشرف الممتازة. وكانت هذه الرحلة العلمية الناجحة قد بدأت في كُتّابٍ سَاذج بمدينة دمياط حيث أتمَّ حفظَ القرآن الكريم كما رأينا من قبل، والتحق بالمعهد الديني الابتدائي في سن العاشرة وتخرج فيه، ثم التحق بالمعهد الديني الثانوي بالزقازيق، وانتقل منه إلى تجهيزية دار العلوم، حيث حصل على البكالوريا، ومنها التحق بجامعة القاهرة طالبًا بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، حيث حصل على درجة الليسانس سنة ١٩٣٥، ثم درجة الماجستير سنة ١٩٣٩، ثم الدكتوراه سنة ١٩٤٢، كما سبقت الإشارة.

---

(١) علي الحافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب. بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٦٧. ص٢٣٦.

وهكذا بدأ الانفتاح على ثقافة العصر بجهود محمد علي باشا لتحديث مصر وسعيه لجعلها دولة عصرية ذات جيش نظامي قومي، وتطوّرت هذه الجهود ليصبح الأمر في أيدي المصريين أصحاب الجامعة الوليدة.

وكان من الطبيعي أنْ يزدادَ طموحُ الرعيلِ الأول من أساتذة الجامعة بتطور الحياة الثقافية والسياسية في مصر، فتنشأ تيارات للتجديد ذات حماسة بالغة، وتنطلق بعضُ مناهج الدرس الجامعي في مصر إلى الانفتاح على ثقافة الغرب الذي ترى فيه المثل الأعلى لنهضتها.

وكان هناك من أصحاب المذاهب المحافظة مَنْ يتصدّون لهذا الجديد الذي يرون فيه خطرًا على القيم التقليدية لثقافة المجتمع الإسلامي في مصر، وخصوصًا في ضوء الاعتقاد الأوربي بمركزية الثقافة الغربية، وهي المركزية التي تعرض لها في النصف الأول من القرن الماضي كلٌ مِن: اشبنجلر وتوينبي بالنقد الصارم والرفض الصريح.

لقد أعلن اشبنجلر في حسم عن إيمانه باستقلال كل حضارة بذاتها بوصفها وحدة ثقافية خاصة ليس بينها وبين غيرها من الحضارات غير منافذ من نوع خاص، لا يسمح بنفوذ شئ لا يتلاءم وجوهر هذه الحضارات[١]. وكان هذا من مباديء الحماية الذاتية التي تطمئن إليها شعوب العالم الثالث.

ويتفق توينبي مع اشبنجلر في ثورته على المنهج التقليدي، الذي يتخذ من الحضارة الغربية قطبًا ثابتًا يقاس على أساسه جميع الحضارات الأخرى، على الرغم من اختلافه معه فيما يتعلق بنبوءته عن سقوط الغرب وهو عنوان أحد كتبه المهمة[٢].

كان كلٌ من المؤرخَيْن السابقين يدعو إلى ثورة كوبرنيكية في دراسة ثقافات الشعوب تصحّح وهم المؤرخين الأوربيين الذين يتصورون حضارتهم قطبًا ثابتًا للثقافات ينبغي أن تقاس على أساسه

---

(١) عبد الرحمن بدوي: اشبنجلر. القاهرة :النهضة، ط٢. ص٣٧.

(٢) أرنولد توينبي: مختصر دراسة التاريخ ، ترجمة فؤاد شبل. القاهرة: جامعة الدول العربية، ١٩٦٦ ج١/٩٨.

ثقافات الشعوب الأخرى، مثلما توهم آخرون من قبل كوبرنيكس أن كوكب الأرض ثابت، وأنه محور دوران لجميع الكواكب[١].

وفي ظلِّ الدعاية لجعل مصر قطعة من أوربا كان لهذا الجدل الفلسفي حول مركزيّة الحضارة الغربية الواحدة في مقابل القول بتعدد الحضارات ـ أصداءُ ثقافية في مناهج البحث الجامعي لدى أساتذة الجامعة الوليدة التي ارتبطت بنمو الشعور القومي ونشأة الوعي الديمقراطي بالوطنية المصرية، ومن هؤلاء الأساتذة شوقي ضيف. وكان من آثار ذلك ما يمكن تسميته بتأسيس فقه الثورة المنهجية، في قسم اللغة العربية بكلية الآداب بالجامعة الناشئة. وقد حمل لواءَ هذه الثورة أعلامٌ كبار رأوا أن يفرقوا بين الثابت والمتحول في ثقافتنا العربية، وأن يفتحوا أبواب المعرفة العالية أمام شباب الجامعيين، وذلك بالانقطاع المعرفي عما لا ينفع من القديم، والانفتاح العلمي المتحرر على كل ما ينفع من الجديد، ولو على سبيل الشك المنهجي المؤسس على الضبط العلمي الدقيق[٢].

وكان على الجانب الآخر رؤية تتمسك بالمحافظة على تقاليد الثقافة الموروثة ـ كما وردت ـ والوقوف ضد محاولات النقد والتصنيف والمفاضلة بين الثابت والمتحول. كان الطابع الغالب على هذا الاتجاه انغلاقًا يسدُّ الأبواب، وهو اتجاه تنتمي إليه جماعات مختلفة داخل الجامعة وخارجها لأسباب تاريخية متوارثة، ترى الأخذ بمبدأ التقليد بحلوله التاريخية الجاهزة التي سادت خلال قرون طويلة قبل العصر الحديث[٣].

كان لهذا الصراع بين القديم والجديد في الفكر المصري الحديث صداه في مناهج الدرس الجامعي ـ كما سبقت الإشارة ـ وقد تجلى على الخصوص في فكر أستاذَيْن من مؤسسي فكر التجديد في الجامعة، هما: طه حسين، وأمين الخولي.

---

(١) انظر فيما يتعلق بالآراء المتصلة بالدورات الحضارية للتاريخ ـ عفت الشرقاوي: في فلسفة الحضارة الإسلامية. بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١. ص ١٨٥.

(٢) انظر كيف تطور الجدل حول الثابت والمتحول في كتاب أدونيس، الثابت والمتحول، بحث في الاتباع والإبداع عند العرب. بيروت: دار العودة،١٩٧٤. ج١/١٨.

(٣) انظر دراسة تفصيلية في توضيح هذا المعنى عند محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلتُه بالاستعمار الغربي. القاهرة: مكتبة وهبة، ط٢. ١٩٧٥. ص٣٧ فما يليها.

أما الدكتور طه حسين فكان له دوره في الدعوة إلى تأسيس منهج علمي يقوم على تجديد التفكير فيما ننظر من قضايا الأدب والثقافة كما هو معروف. وقد أعلن عن رفض حاد لمناهج الدراسة الأدبية السائدة آنذاك في بيئات مصر الثلاث: الأزهر الشريف، ودار العلوم، ومدرسة القضاء الشرعي، فيقول مثلاً: وكل عيب الأدب العربي أنه مجهول لا يحسنه أصحابه ولا يتعمقونه. . . ويقيننا أنه لو تغير تصور الناس للأدب وتغيرت مناهجهم لاستقصائه والبحث عنه لتغير الأدب نفسه، ولكان في مصر منتجا قيّمًا كما أن درس العلوم التجريبية فيها منتج قيم[١]. وقد دعا طه حسين إلى تبنّي منهج جديد يمتحن صحة الشعر الجاهلي مشككًا فيما نقل إلينا منه. وقد أحدث كتابه في ذلك ضجّة كبيرةً، حملت بعض الأقلام على اتهامه في ولائه الديني والقومي على ما هو معروف في تاريخ الفكر المصري الحديث، وخصوصًا فيما يتعلق بترديد مقولات المستشرقين والترويج لها في زعمهم، فقد أخذوا عليه مثلا قوله : كان القدماء مسلمين مخلصين في حب الإسلام، فأخضعوا كل شيء للإسلام وحبّهم إياه، ولم يعرضوا لبحث علمي، ولا لفصل من فصول الأدب أو لون من ألوان الفن إلا من حيث أنه يؤيد الإسلام، ويعزه ويعلي كلمته، فما لاءم مذهبهم هذا أخذوه، وما ناقضه انصرفوا عنه انصرافاً[٢]، كما أخذوا عليه شكه في أصالة الشعر الجاهلي في مثل قوله: فأول شيء أفجؤك به في هذا الحديث هو أنني شككتُ في قيمة الأدب الجاهلي وألححتُ في الشكّ. . . ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبًا جاهليًا ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام[٣].

وعلى الرغم من المعارضة التي قوبلت بها آراء طه حسين، فقد أصر على حمل رسالته والإعلان عن رأيه فيما ألف من مقالات وكتب، وخصوصًا في كتابه مستقبل الثقافة في مصر الذي اعتبره بعضهم طعنًا على القومية العربية في الصميم.

---

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام. مصر: النهضة المصرية، ط١٣. ١٩٨٢. مقدمه طه حسين ، ص (و) .

(٢) طه حسين: في الأدب الجاهلي. القاهرة: دار المعارف، ط٤. ص٨٦.

(٣) نفسه، ص ٨٢.

فماذا كان موقف شوقي ضيف من منهج الدراسة الأدبية الجديدة في الجامعة، وماذا كان من أثر لفكر طه حسين الذي كان أستاذه القريب والمشرف على أبحاثه؟

من الواضح أنَّ قدرةَ شوقي ضيف على الاستجابة للجديد الذي يقدّمه طه حسين وغيره من الأساتذة واضحة فيما كتب، ولكن منهجه في ذلك يتمثل في مواقف أكثر مراعاة للجمع بين القديم والجديد من أساتذته في خضم هذه الثورة المنهجية التي أقامها طه حسين وبعض زملائه التي بدا للناس أنها تنفي القديم.

فأما فيما يتعلق بقضية الانتحال، فهو يعترف مع أستاذه أنَّ الشعر الجاهلي دخل فيه انتحال كثير، ولكن ذلك لا ينفي أصالة الشعر في جملته عند شوقي ضيف. وهو يعرض لأدلة طه حسين في ذلك فيناقشها ويردها في هدوء لا يخلو من شجاعة أدبية، ثم يتلمس في بعض عباراته ما يخفف هذه الحدة فيما ذهب إليه طه حسين عندما تحدث عن شعر مضر، حيث يقول : فإن لهذه الدراسة من الخصائص الفنية المشتركة ما يؤكد صحة شعرها وسلامته من الوضع والانتحال فيرى شوقي ضيف في ذلك ما يهدم بعض شكوك طه حسين الواسعة في الشعر الجاهلي، ويناقض نظريته.

وكان شوقي ضيف حين نشر كتابه الذي ورد فيه هذا الرد الصريح على طه حسين أراد أنْ يهدي نسخة منه إلى أستاذه طه حسين، وكان يظنُّ أنه سيراجعه في آرائه التي رَدَّ بها على نظريته في الانتحال فإذا به يثني على جهوده في الكتاب، ويقول: إنه قرأ ما كتبه في الرد عليه، ويشير على الصحفيين بأن يلتفتوا إلى ما كتبه شوقي ضيف في كتابه "العصر الجاهلي"[1]، وهي استجابة منهجية رفيعة بين الأستاذ وتلميذه يشيد بها شوقي ضيف في مناسبة أخرى، حيث يشير إلى حصوله على جائزة الدولة في الآداب سنة ١٩٥٥، عن كتابه عن "شوقي شاعر العصر الحديث"، فقد تولاه العجب لأنه كان بين أعضائها طه حسين وعباس العقاد، وكان قد عرض في الكتاب نقدهما العنيف لشوقي الذي نشراه في حياته، وتصادف أنَّ أحدًا لم يتصد للرد عليهما بقوة وبيان ما في نقدهما لشوقي من تجنٍ مسرف وطعن مجحف في شاعريته، وقد ناقش في كتابه هذا النقد، وأوضح ما فيه

---

(١) معي، ج٢/ ٨٨.

من تعصب على شوقي وتهجين وتنقص شديد لشعره، وفند منه ما يستحق التفنيد مع وضع شوقي في مكانته الرفيعة من الشعر الحديث[١].

هذا الموقف الذي يتكامل منهجيا في دراسات شوقي ضيف هو الذي حمل أعضاء اللجنة على إنصافه، على الرغم من معارضته لبعض اعضائها، وخصوصا طه حسين وعباس العقاد، فقد كان في موقفهما ما يدل بوضوح في رأي شوقي ضيف على مدى ما كان يتحلى به كل منهما من نزاهة في الحكم على ما يقرأ، وعدم التأثر فيه بأي شئ، حتى لو كان متصلا ببعض آرائه، بل حتى لو ناقض هذه الآراء، وأثبت بطلانها، فالرجلان لم تأخذهما العزة بالإثم، بل أعجبا بالكتاب، وأثنيا على صاحبه، بل هما اللذان اقترحا له الجائزة مناصفة قبل تقسيمها - فيما بعد - إلى تقديرية وتشجيعية[٢].

وأما الداعية الثاني للثورة المنهجية، فقد كان الشيخ أمين الخولي، وكانت الجامعة في أول نشأتها الرسمية في خمام الربع الأول من القرن العشرين، قد وجدت الحاجة في درس الأدب وتاريخه إلى القول في القرآن الكريم، بما في ذلك علاقة النص بالتاريخ الأدبي. وكان من أبحاثها ما لقي معارضة من جهات محافظة خارج الجامعة ، وصفها بعضهم بأنها أثارت غوغائية ذات نزعة متحجرة، ورغبة في مهاجمة الجامعة والإغارة عليها، مع أن الشيخ كان يكرر دائمًا أن هدفه هو النظرة البلاغية للنص التي تقوم على رؤية أدبية تتمثل الجمال القولي في الأسلوب القرآني، بصرف النظر عن الإعجاز العلمي أو التاريخي للنص الديني.

وقد رأى شوقي ضيف أنَّ المزاوجة في القضية البلاغية بين التطور والتجديد أولى من الوقوف عند فكرة التجديد وَحْدَها التي بدا للنقاد أن أمين الخولي معني بها لا يكاد يجاوزها إلى الاهتمام بالتراث في ذاته كما ينبغي. وهكذا رأى شوقي ضيف أن يهتم بدراسة البلاغة درسًا منظما بحيث ترتب حياتها على منازل التاريخ، وبحيث تتضح معالم تطورها في كل منزلة من دورة زمنية إلى دورة

---

(١) معي، ج٢/٣٩.

(٢) نفسه، ص ٣٩.

أخرى ومن جيل إلى جيل، ولم تكن غايته في ذلك أن يصور هذا التاريخ فحسب، بل أيضًا أن يصور الترابط الوثيق بينها وبين أدبنا في تطورهما . . . وينبغي أن نُعنى ببيان الأساليب الأدبية وفنون الأدب المختلفة حتى نلائم بين بلاغتنا وأدبنا الحديث، وأساليبه وفنونه، مع الحرص على الانتفاع بتراث أسلافنا البلاغي القيم الذي أودعوا فيه خصائص لغتنا الأدبية ومقوماتها البيانية والبلاغية.

وحين دعي شوقي ضيف إلى الحديث عن: نواقص الإيقاع في الشعر الحر، وكان العنوان من اختياره، والمحاضرة في بيروت عاصمة هذا الشعر آنئذ، كان موقفه في محاضرته كما يصف نفسه: موقفا معتدلا بين أنصار هذا الشعر وخصومه، فعرض حجج الطرفين عرضًا مفصلاً، وناقش تلك الحجج مناقشة هادئة منصفة وخلص إلى أنه ينبغي أن ترد إلى الشعر الحر القافية المنوعة والصياغة الفصيحة الناصعة، حتى يجد العرب فيه متاعهم الشعري الهنيء[١].

وهكذا يزاوج شوقي ضيف بين القديم والجديد في جميع مواقفه ويتحرى التكامل المنهجي فيما يقدم من أحكام علمية. ويتصل بذلك - أيضًا - ما أثاره أمين الخولي فيما ألح عليه من رفض محاولات التفسير العلمي للقرآن الكريم في دروس البلاغة والتفسير ، فيبين شوقي ضيف في وضوح رأيه في ذلك مقررًا: أن الإسلام يعانق العلم منذ أول آيات من القرآن الكريم نزلت على الرسول، ويرفعه الله فوق تسبيح الملائكة، وينوه الرسول به طويلاً. وقد لفت القرآن المسلمين بما فيه من إشارات إلى العلوم الطبيعية والفلكية والطبية، مما جعلهم يطلبونها عند الأجانب بعد استقرارهم في الأمصار الإسلامية[٢] . ويتحد مفهوم الإسلام عند شوقي ضيف مع العلم، مكوِّنًا علومًا ثلاثة، هي: علم التفسير، وعلم الحديث أو السنة، وعلم الفقه، بل إن القرآن بجانب هذه العلوم الدينية ينوه بالعلوم الطبيعية والعلوم الفلكية والرياضية والعلوم الطبية، وهكذا جعل الله الأمة الإسلامية أمة علم وتعلم[٣] . وربما كان ما ذهب إليه شوقي ضيف يتعلق بأثر الإسلام في تشجيع طلب العلم، وفتح

---

(١) معي، ج ٢ /١٠٥.

(٢) شوقي ضيف: عالمية الإسلام. مصر: مكتبة الأسرة، ١٩٩٩ . ص٥ .

(٣) عالمية الإسلام، ص٦ .

أبواب المعرفة بآفاقها المختلفة، وليس محاولة البحث في القرآن الكريم عما يطابق ما جاء به العلم الحديث، كما يفعل بعض العلماء اليوم، فهذا مفهوم آخر لعلاقة القرآن بالعلم، كان يتوقف فيه أمين الخولي، ويدعو إلى مناهضته.

لقد عاش شوقي ضيف هذه الثورة المنهجية طالبًا للعلم على أيدي عدد من هؤلاء الأساتذة الكبار الذين أسّسوا درس العربية بالجامعة، ثم عمل في الجامعة بعد ذلك زميلاً لهم، كما عرف في الوقت نفسه تيارات فكرية ذات نزعة محافظة في قسم اللغة العربية آنذاك، لم تكن ترضى عن هذه النزعات التجديدية وتقف منها موقف النقد الصارم. وكان هذا من طبيعة التطور ونظام الحياة الفكرية عبر التاريخ دائما: صراع القديم والجديد الذي شغل الجامعة والجامعيين منذ التحاق شوقي ضيف بها.

لقد اقتضى نظام التطور في هذه الحياة دائما أن يكون هناك في كل وقت جدل بين القديم والجديد، إذ لا يمكن اطراح القديم اطراحًا طائشًا في سبيل الجديد، ولا يمكن من جهة أخرى الانغلاق على القديم دون تجديد. هذه هي حركة الحياة والأحياء كما فهمها شوقي ضيف. وهذا ما نريد أن ننتهي إليه هنا في هذه الكلمة، لقد كان شوقي ضيف حلقة الوصل القوية بين القديم والجديد في قسم اللغة العربية، كان له منهجه في دراسة القديم على أسس موضوعية دقيقة لا تجنح إلى الحماسة التي قد توقع في المبالغة أو الافتراض، وإنما تقبل على قراءة القديم في ضوء مناهج حديثة تضعه في إطاره التاريخي الصحيح، ثم صار الأمر كأنه هو ومجموعة من زملائه بالجامعة يمثلون الموجة الثانية من حركة التجديد المنهجي في الجامعة، بعد الموجة الأولى التي قادها طه حسين وأمين الخولي ومصطفى عبد الرازق. وهذه المجموعة الجديدة أكثرُ ميلاً إلى الحرص على التكامل المنهجي بين القديم والجديد، كما كان الأمر في دراسات شوقي ضيف في الثقافة العربية والإسلامية. من أجل ذلك نقول: إن شوقي ضيف أحد المؤلفين القلائل الذين لا تملك أن تختلف معهم علميًا، سواء كنت من أنصار الجديد، أم من أنصار القديم، فسياسة التوازن القائم على ضوابط منهجية وتاريخية صادقة تدعوك في كل حال إلى الإعجاب بالأستاذ والاعتماد عليه دائمًا، فيما يقدم من مناقشات

علمية. من أجل ذلك؛ فأنت لا تستطيع أن تنسب شوقي ضيف إلى أي من هذين المنهجين من دون أن تكون متجاوزاً لبعض الحقيقة، فقد تأثر بطه حسين وأمين الخولي معًا، ولكنه تأثر بغيرهما من الأساتذة والزملاء على اختلافهم، دون أن يكون في النهاية صورة مطابقة لواحد بعينه من كل هؤلاء الذين تتلمذ عليهم أو زاملهم في رحلته الجامعية.

ويبقى شوقي ضيف دائمً نسيج وحده: مؤلفًا في الدراسات الإسلامية، وله في ذلك سبعة كتب، أهمها كتابه "الوجيز في تفسير القرآن الكريم"، ومؤلفًا في الدراسات النقدية، وله في ذلك ثلاثة كتب، ثم مؤلفًا في تاريخ الأدب العربي في مختلف عصوره وأقاليمه: ابتداء من العصر الجاهلي إلى عصور الدول والإمارات، وذلك في عشرة كتب.

أما كتبه في الدراسات البلاغية واللغوية فقد بلغت خمسة كتب، أهمها كتاب "البلاغة : تطور وتاريخ". وفي الدراسات الأدبية كتب شوقي ضيف اثني عشر كتابًا، أهمها: "الفن ومذاهبه في الشعر العربي"، و"الفن ومذاهبه في النثر العربي".

وكان لشوقي ضيف في التحقيق جهد يستحق التقدير والإعجاب أيضًا، فقد حقق ستة كتب، منها: كتاب "الرد على النحاة" لابن مضاء القرطبي، وكتاب "السبعة في القراءات" لابن مجاهد. وهناك غير ذلك كثير من المقالات والأبحاث في المجلات العلمية والمؤتمرات الدولية.

وبعد؛ ففي اعتقادي أنَّ مؤلفات شوقي ضيف وحدها يمكن أن تؤسس خبرةً شبه كاملة في الثقافة العربية والإسلامية لباحث طموح يبحث عن آفاق من التخصصات المتعددة في هذه المكتبة الشوقية الخالدة بضبطها المنهجي الدقيق، وبتوازنها الأكاديمي الرفيع بين القديم والجديد.